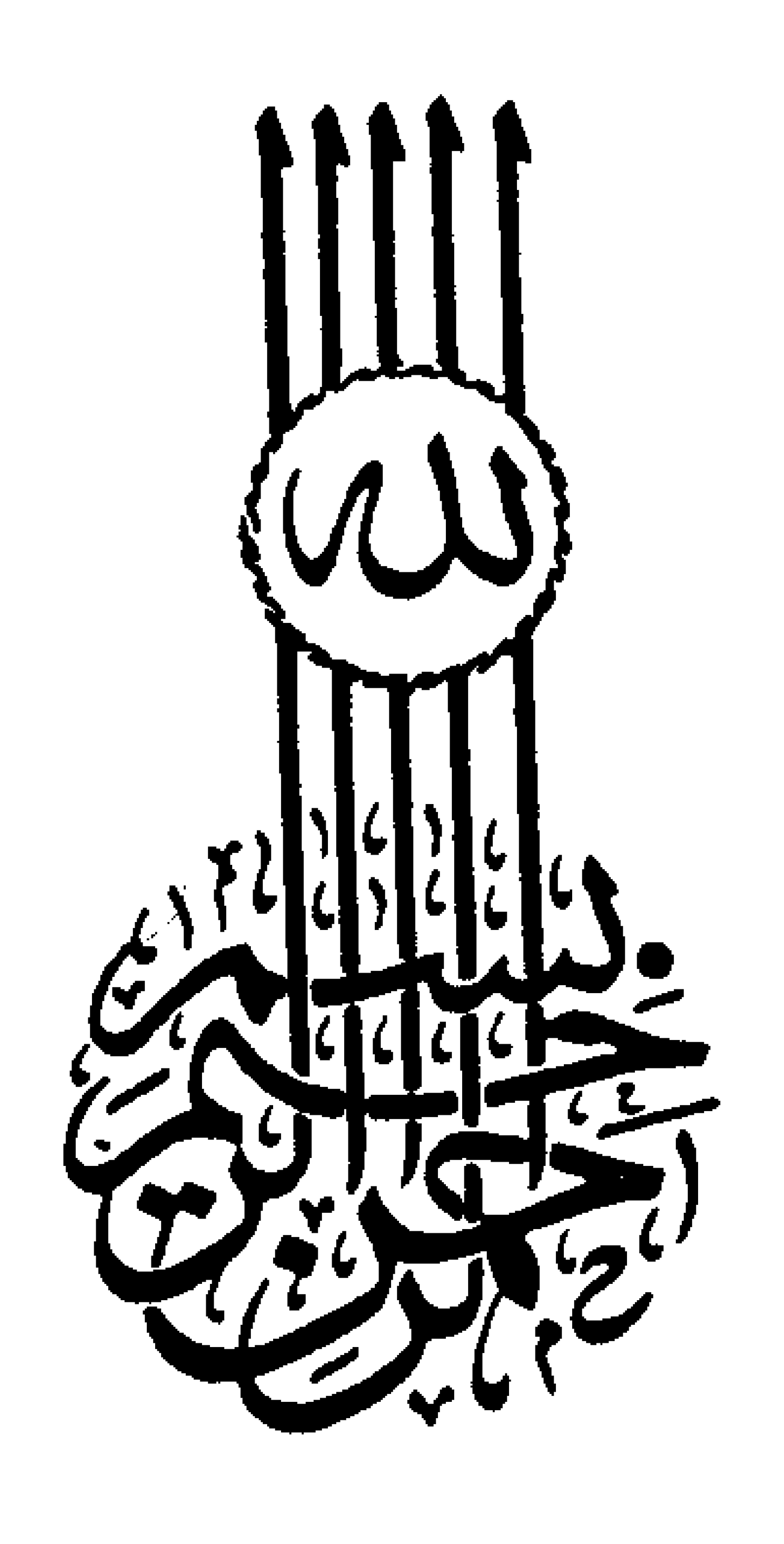


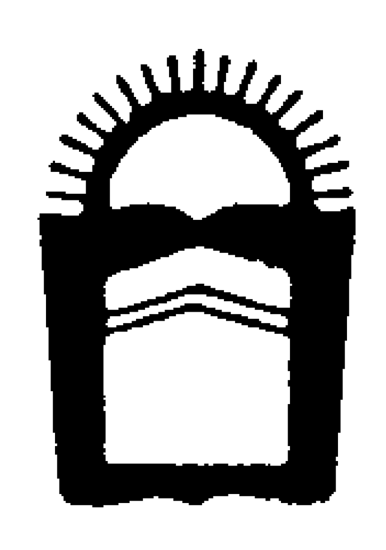


منهاج الانقلاب الإسلامي



الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

منهاج الانقلاب الإسلامي



الدار السعودية
للنشر والتوزيع

جدة

الإدارة: البغدادية ـ عمارة الجوهرة ـ الدور الثاني
شقة ٧ ـ ١١ ـ ١٢

● تليفون: ٦٤٣٢٨٢١/ ٦٤٢٤٢٥٥/ ٦٤٢٤٠٤٣
● تلكس FONOON. 602687
NASHRA. 404351
فاكس ٦٤٣٢٨٢١
6432821 FAX

● ص. ب. ٢٠٤٣ ـ الرمز البريدي ٢١٤٥١
المكتبة: شارع الملك عبد العزيز.
تليفون ٦٤٧٨٧٢٣
المكتبة: شارع فلسطين ـ مركز الزومان
تليفون ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام:

الشارع العام ـ ص. ب. ٨٩٩
تليفون ٨٣٢٣٥١٥/ ٨٣٣٥٥٢٠
فاكس ٨٣٣٥٥٢٠
8335520 FAX

أبو الأعلى المودودي

منهاج الانقلاب الإسلامي

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

المقـدمـة

يضم هذا الكتاب ، المحاضرة التي ألقاها في الثاني عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٤٠ الأستاذ أبو الأعلى المودودي ، على طلبة جامعة عليكرة وأساتذتها ، التي كانت من أكبر المراكز الثقافية الإسلامية ، وقد ألقيت المحاضرة إبّان احتدام الصراع بين أصحاب النظرية القومية الهندية والمسلمين ، في شبه الجزيرة الهندية . وكان هدف الأستاذ المودودي منها تنبيه المسلمين إلى الدعوة الإسلامية الحقّة بتعاليمها السمحة وشخصيتها المميزة غير المتعصبة ؛ والحقيقة أن أستاذنا استطاع إنارة معالم الطريق أمام من استمع إلى النصيحة وعمل بها ، أما من تغاضى عنها فخسر حيث ظن نفسه أنه قد فاز .

هذا ، وقد طبعت المحاضرة باللغة الأردية ووزّع منها عشرات الألوف من النسخ ، شأنها شأن سائر رسائل الدعوة للأستاذ المودودي ، كما ترجمت كأخواتها للإنكليزية وإلى كثير من اللغات الهندية .

أمّا الترجمة العربية الأولى لها فقد عنيت بنشرها « دار العروبة للدعوة الإسلامية » سنة ١٩٤٦ ، ثم أعيد نشرها مرتين ، في القاهرة سنة ١٩٥٠ ، وفي دمشق أيضا .

وإن «**الدار السعودية للنشر والتوزيع**» إذ تقدّم اليوم للقراء الكرام هذه الطبعة الخامسة في حلة جديدة منقحة ، فإن هدفها هو نشر فكر الأستاذ المودودي في أكثر من مكان للانتفاع منه ، وللإشارة إلى ملامح الشخصية الإسلامية المميزة بسماحتها وعمقها العقائدي الإيماني .

الناشر

منهاج الانقلاب الإسلامي

أريد أن أشرح لكم بهذه المحاضرة المنهاج الذي تتكون منه « الدولة الإسلامية » كنتيجة طبيعة ، فقد أصبحت هذه الكلمة اليوم حديث الناس في محافلهم ، يكثرون من ذكرها ويتطلعون إليها شوقاً ويتمنون تحقيقها ، ولكنهم لا يعلمون طرق إيجادها وإبرازها إلى الوجود ولذلك تراهم يختارون من الطرق والمناهج الغريبة ما يستحيل به الوصول إلى ذلك المطمح الأسمى ، فمثلهم كمثل رجل يريد الوصول إلى أمريكا بالسيارة . والسبب الوحيد لهذا التفكير الفارغ أنهم قد تاقت أنفسهم لأسباب تاريخية وسياسية إلى شيء يدعى ويعرف باسم « الدولة الإسلامية » ، ولكنهم لم يمعنوا في المسألة ولم يفكروا فيها تفكيراً علمياً يرشدهم إلى وضعيتها الخاصة ، وكذلك لم يدققوا فيها تدقيقا يدلهم على المناهج المخصوصة التي لا بد منها لتكوينها . فالحاجة ماسة إلى أن نعنى بهذه المسألة بالدرس والتحقيق العلمي النزيه ، حتى ينجلي الأمر ويبدو الحق لكل ذي عينين .

الارتقاء الطبيعي لنظام الدولة

والذين لهم أدنى إلمام بعلوم العمران يعرفون أن الدولة مهما كان من وضعيتها لا تتكون ولا توجد بالطرق الصناعية ، فليست هي بالتي تصنع في مصنع ثم تنقل منه وتثبت في موضع آخر ، بل إنها تنشأ في المجتمع نشوءًا طبيعياً لأسباب أخلاقية ونفسية وعمرانية وتاريخية وتتفاعل هذه الأسباب فيما بينها ، فتكون لها أمور أولية لازمة ومحركات اجتماعية ومقتضيات فطرية تتجمع وتتقوى حتى تنبعث منها الدولة انبعاثاً ، فكما ترون في المنطق أن النتيجة تابعة للقضايا وترتيبها ، وكما تلاحظون أن المركب الكيماوي لا يتكون إلا بامتزاج الأجزاء المتناسبة فيما بينها بوجه خاص ، كذلك مما أجمع عليه علماء العمران[١] أن الدولة الراسخة البنيان نتيجة طبيعية لمقتضى الأحوال والظروف المتجمعة في المجتمع ، وأنه يتوقف ـ كذلك ـ تعيين هيئة الدولة ووضعيتها الخاصة تماماً على تلك الأحوال والعوامل التي تقتضي تكوُّنها . فكما لا يمكن أن يكون للقضايا صورة مخصوصة ثم تظهر منها بعد ترتيبها نتيجة غير ما تستدعيها القضايا وترتيبها بوجه خاص ، وكما لا يمكن أن تكون للأجزاء الكيماوية خصائص ثم يظهر بعد امتزاجها وتركيبها شيء تختلف خصائصه عما يقتضيه تركيب تلك الأجزاء وتمازجها بصورة مخصوصة ، وكما لا

---

(١) العمران هو ما يسمى بعلم الاجتماع ، وابن خلدون أول من كتب في هذا العلم قاطبة . (المترجم) .

يمكن أن تغرس شجرة الكمثرى ، ثم تظهر منها ـ بعد نموها واكتمالها ـ ثمرات شجرة التفاح أو الرمّان ، فكذلك ليس من الممكن أن تجتمع الأسباب لطراز خاص من الدولة ، وتكون طرق عملها أيضاً مما يلائم ذلك الطراز ونماءه وازدهاره ، ثم حينما تبلغ كمالها أو تكاد ، بعد مجاوزتها جميع مدارج الرقيّ والنهوض ، تظهر في صورة غير التي تقتضيها تلك الأسباب والعوامل . لعمر الحق إن ذلك لا يمكن أبداً ، كما بيَّنته آنفاً .

ولا يحسبنّ أحد أني أريد بهذا القول إثبات الجبر ونفي الاختيار والإرادة الإنسانية ، لأنه مما لا مراء فيه أن لأعمال الأفراد والجماعات يداً نافذة في تعيين وضعية الدولة ، ولكن الذي أريد أن أُؤكده في هذا المقام أنه لا بد من جمع أسباب تلائم طبيعة الوضعية المنشودة للدولة وفطرتها الخاصة وانتهاج طريق للعمل يوصل إليها ، فلا جرم أن تقوم حركة تلائمها في طبيعتها ، وأن تتهيأ السيرة الفردية والأخلاق الاجتماعية حسب ما تقتضيه الغاية المنشودة ، وكذلك لا بد لها من زعامة وعمل اجتماعي وفق ما تتطلبه هيئة ذلك النظام الخاص الذي نحن بصدد إيجاده ، فإذا تجمعت هذه العوامل والأسباب تفاعل بعضها في بعض وعلا شأنها وقوي أمرها بعد مراس وصبر عظيم ، حتى لتكاد تندفع اندفاع السيل ، ولا يبقى في مَكْمَنِهِ نظام آخر أن يقوم في وجه المجتمع الذي تولد من تفاعل تلك الأسباب والعوامل ، فحينذاك يحل محله النظام المنشود الذي

سعت في إيجاده وتكوينه تلك الأسباب القوية والعوامل المؤثرة النافذة ، فمثله كمثل بذرة تعيش إلى ما شاء الله من مدة في بطن الأرض ثم تخرج على وجه الأرض شجرة تنمو وتكبر حتى تصير باسقة ، وتثمر من الأثمار ما تنزع إليه بنيتها الفطرية .

فإذا أمعنت النظر في ما قلتُ وسبرتَ غوره ، وتبين لك الأمر وعرفت أن الأمة التي تبغي نظاماً للدولة خاصاً ، ثم رأيتها تناقضه في زعامتها وسيرتها الفردية والجماعية وفي المناهج والسبل التي تختارها لنفسها ، ومع ذلك ترجو أن تظفر به يوم تظفر ببغيتها وتبلغ قصدها ، فلا شك أنها أمة بلهاء لا حظ لها من صواب الفكر وسداد الرأي .

الدولة الفكرية :

فلننظر الآن في الدولة التي نسميها « الدولة الإسلامية » ، ما هي وضعيتها الخاصة ؟

فأول ما يظهر لنا من خصائص الدولة الإسلامية التي تمتاز بها عن غيرها أنه ليس لعنصر القومية[1] حظ في إيجادها وتركيبها ، وإنما هي دولة فكرية مؤسسة على مباديء وغايات

---

(١) ينبغي أن لا يغيب عن بال القاريء أن القومية الممقوتة في الإسلام هي التي تدعى اليوم Nationalism وهي فكرة سياسية تناقض مباديء الإسلام كما لا يخفى . أما القومية المترادفة مع كلمة (الجنسية Nationality فلا مشاحة فيها ، لأن الإسلام لا يحول بين المرء وعطفه على بني قومه وعشيرته وتودده إليهم . (م. الندوي) .

معيّنة واضحة . ونظرية الدولة الفكرية هذه ما زالت ولا تزال غريبة لا يعرفها العالم ولم يستأنس بمزاياها ، وذلك أن الناس ما كانوا يعرفون فيما مضى من القرون والأجيال من الدول إلا ما يؤسس على دعائم البيوتات أو الطبقات ثم عرفوا فيما بعد الدول القائمة على دعائم السلالة أو القومية ، أما الدولة الفكرية القائمة على مباديء وغايات بحيث من قبلها وأعرب عن استمساكه بها أصبح مشاركاً في تسيير دفتها من غير أن يُنظر إلى جنسيته أو سلالته ، فمما لم يخطر على قلب بشر وما اتسعت صدور العالم الضيقة لمثله قط .

فالمسيحية قد تراءت لها صورة منها مبهمة غامضة ، ولكنها لم يَتَسَنَّ لها نظام فكري تام يمكن أن تؤسس الدولة على قواعده ، وكذلك تجلت للناس لمحة من الدولة الفكرية في الثورة الفرنسية ولكنها ما لبثت أن اختفت في ظلمات القومية . وكذلك قامت الشيوعية تبث الدعاية لمبدأ الدولة الفكرية في أول أمرها وقد سعت في تأسيس دولة على أساس هذا المبدأ حتى بدأ العالم يستأنس به ويتفطّن لما يشتمل عليه من حسنات ، إلّا أنه قد دبَّ دبيب الوطنية الملعونة في عروقها أيضاً . فالإسلام هو المنهاج الفكري الوحيد الذي يمتاز من بين الأفكار والمذاهب ـ منذ أقدم عصور التاريخ إلى يومنا هذا ـ بأنه يقيم على أساس الفكرة فحسب نظاماً للدولة مطهراً من العصبيات الجنسية وأقذارها ، ويدعو الناس كافة إلى الإيمان بهذه الفكرة والانضواء تحت لوائها حتى

تتشكل دولـةً فكرية غير مقيدة بجنس ولا قومية .

ولا شك أن مثل هذه الدولة عجيبة في وضعها غريبة في هيئتها والعالم من حولها سائر في طريق غير طريقها ، ومن ثم ترى أن أبناء العصر ـ حتى المسلمين أنفسهم ـ قاعدون عن التفطن لمزاياها وإدراك جميع ما تتضمنه من المحاسن والمنافع ، فالذين وُلدوا في بيوت المسلمين وترعرعوا فيها لكنهم تثقفوا بثقافة أوروبية واقتبسوا نظرياتهم وآراءهم في العمران والاجتماع من تاريخ أوروبة وسياستها وعلومها العمرانية ، لا تقبل أذهانهم هذه الفكرة الإسلامية أصلاً ، ومن ثم ترى أنه لما انتقل زمام الأمر إلى أمثال هؤلاء في الإقطار التي تتمتع بنوع من الاستقلال ومعظم أهلها من المسلمين لم يجدوا أمامهم فكرة غير فكرة الدولة القومية ، لأنهم لم يكن لهم علم بالإسلام ومبادئه ونظمه الخالدة ، ولم يقرع أسماعهم شيء من تصوّر (مفهوم) الدولة الفكرية ، وكذلك شأنهم في بلادنا الهندية[1] فإن المسلمين الذين تثقفوا من أهلها بالثقافة الغربية يستعصي عليهم إدراك هذه الحقيقة السامية ، فإنهم وإن كانوا يلهجون بذكر الدولة الإسلامية ، مضطرون بطبيعتهم وثقافتهم أن لا يهتدوا إلاّ إلى الدولة القومية ، وكل ما يقع اختيارهم عليه من مناهج الفكر لا يخرج عن دائرة الفكرة القومية ، وكل ما ينهجونه من سبيل لا

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة سنة ١٣٥٩هـ ، ١٩٤٠م كما أشرنا إليه في المقدمة

يكون إلاّ سبيل القومية ، فلأجل ذلك تراهم لا يهمهم اليوم إلاَّ أن ينتقل زمام الأمر إلى الأمة التي تتسمّى بالمسلمين أو على الأقل يحصل لهم نفوذ سياسي (سلطة سياسية) في ناحية من نواحي هذا القطر العظيم .

وكلما فكَّر هؤلاء وبحثوا في الطريق التي توصلهم إلى مطمحهم القومي لا يتجلى لهم إلا المناهج التي تختارها أمم العالم عامة لتحقيق مطالبها السياسية ، وذلك أن يُجمع كل رطب ويابس من عناصر الأمة على رصيف واحد ويُتخذ من تلك العناصر الصالحة والفاسدة كتلة متضامنة تنفخ فيها روح القومية ، ويكون لهم سلطة مركزية ، وحرس قومي وجند قومي ، وتتكون لهم دولة قومية في الأقطار التي يكون لهم فيها الأغلبية عملاً بالمبدأ الديمقراطي المعروف « الحكم للأغلبية » . وأما البلاد التي يكون فيها عددهم أقل من غيرهم فيريدون أن تضمن لهم المحافظة على حقوقهم وخصائصهم القومية كما تحب الأقليات القومية في سائر بلاد العالم أن تحافظ على خصائصها القومية ، ويكون لهم أسهم معينة في مناصب الحكومة وفي دوائر التعليم والانتخاب ، وينتخبوا نوابهم بأنفسهم ويشتركوا في تشكيل الوزارات من حيث هم أمة مستقلة بالمعنى العصري الديمقراطي .

فهؤلاء المسلمون القوميون يفعلون كل ما تفعل الأقوام الأخرى ولا يتحرجون من ذلك أي تحرّج ، ولكنهم يستغلون كلمات الأمة والجماعة والملة والأمير وطاعة الأمير ، وغيرها

من الكلمات المصطلح عليها في الشرع ، ولكنهم ـ لما تطبعوا به من فكرتهم الإسلامية القومية ـ لا يفهمون من هذه المصطلحات إلا ما يريدونه من معاني دينهم الجديد « دين القومية » وقد ساعدهم حسن الحظ إذ وجدوا تلك المصطلحات الملائمة لأفكارهم في ما وجدوا بين أيديهم من كتب الشرع فاستخدموها لإخفاء ما في أنفسهم من الفكرة المناقضة للإسلام تحت ستار هذه الكلمات والمصطلحات الشرعية .

فإذا عرفتَ ما ذكرت من طبيعة الدولة الفكرية ووضعيتها الخاصة فلا يأخذنك شيء من العجب إذا قلتُ : إن مثل هذه الفكرة ومثل هذه الحركة وبرنامج العمل لا تصلح أن تكون نواة لمشروع الدولة الفكرية أو أساساً لبنيانها فضلاً عن أن تكون عوناً في إكمال بناء هذا الصرح العظيم وإتمامه ، بل الأصح أن كل جزء من أجزاء تلك الفكرة وذلك البرنامج معول من معاول الهدم ، يأتي بنيان الدولة الفكرية أن الدولة التي تقوم على أساسها لا تنظر إلى الأقوام والقوميات أو العشائر والقبائل بل إنما تنظر إلى الإنسان بعين الإنسانية ، وتعرض على الناس كافة مباديء وغايات مبينة واضحة وتقول لهم « إن سعادتكم وفلاحكم في أن تؤسسوا نظام المدنية ونظام الحكم على تلك القواعد ، بحيث كل من قبلها يكون نصيبه في إقامة هذا النظام وإدارته مثل نصيب سائر المؤمنين بهذه الفكرة سواء بسواء » . فقل لي بربك ، كيف يقوم بهذه

الدعوة من تطبعت فكرته ولسانه وأعماله وحركاته بطابع القومية والتعصب لها ؟ فإنه قد أغلق على نفسه باب الدعوة للإنسانية عامة وأوقع نفسه في ورطة من الخطأ في أول خطوة . والأمم والشعوب التي أعماها التعصب القومي والتي لا تتنازع فيما بينها ولا تتحارب إلا لأجل القومية ، والدول القومية إذا أردنا أن ندعوها إلى مبادىء الإنسانية السامية وقواعد السعادة البشرية فهل يكون من المعقول أو نكون على حق إذا شرعنا في هذه الدعوة بالمطالبة بالحقوق القومية والدولة القومية لأنفسنا ؟ وماذا يكون رأيك في رجل أراد أن يقوم بحركة منع الناس عن المقاضاة والتحاكم ، فبدأ دعوته برفع قضية إلى المحكمة بنفسه ؟!

الخلافة الإلٰهية :

والمزية الثانية للدولة الإسلامية أن الأساس الذي يقوم عليه بناؤها تصور (مفهوم) حاكمية الله الواحد الأحد ، وأن نظريتها[١] الأساسية أن الأرض كلها لله وهو ربها والمتصرف في شئونها ، فالأمر والحكم والتشريع كلها مختصة بالله وحده ، وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب بل لا للنوع البشري كافة شيء من سلطة الأمر والتشريع ، فلا مجال في حظيرة الإسلام ودائرة نفوذه إلا لدولة يقوم فيها المرء بوظيفته خليفة لله تباركت أسماؤه ، ولا تتأتى هذه الخلافة بوجه

(١) من شاء شرح هذه النظرية وبيانها فليراجع رسالتنا « نظرية الإسلام السياسية » .

صحيح إلا من جهتين : إما أن يكون ذلك الخليفة رسولاً من الله ، أو رجلاً يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربه .

فالذين آمنوا بهذا القانون وأظهروا استعدادهم لاتباعه والعمل به هم سواسية في إدارة أمر الخلافة ، وإنما ينظر في أمر الخلافة وتدبير شئونها بشعور من المسلمين جميعاً : أن كل واحد منهم ـ فرادى وجماعات ـ مسئول عند الله الذي لا يغرب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وهو الذي يعلم سرائر النفوس وكوامن الصدور والذي لا يعجزه أحد في حياته ولا بعد مماته ، وأنه ما ألقيت إليهم مقاليد الخلافة ليستعبدوا عباد الله ويأمروهم بالخنوع لهم أو يفرضوا عليهم ضرائب فادحة ليبنوا بها مباني شاهقة لأنفسهم ، وليستغلوا مناصبهم وسلطتهم لاتباع الشهوات والانغماس في ملذات الحياة ، بل إنما ألقيت على عواتقهم مسئولية الخلافة لتنفيذ القانون الإلهي العادل في عباده . فالذي ينبغي أن يذكروه دائماً أنهم إن قصروا في اتباع هذا القانون أو القيام بواجب تنفيذه أو أدخلوا في أعمالهم شيئاً من الأثرة أو الأنانية أو التعصب أو المحاباة أو الخيانة ، فلا جرم أنهم سيعاقبون عند الله في الآخرة ولو فاتتهم العقوبة في هذه الحياة الدنيا ونجحوا في التخلص منها بحيلة أو مكيدة .

والبنيان الذي يقوم على أساس هذه النظرية يختلف عن الدول اللادينية اختلافاً كلياً في بنيته وطبيعته وهيئته التركيبية ،

والدولة التي تقوم على أساسها تحتاج في تأسيس بنيانها وإدارة شئونها إلى عقلية مخصوصة وخُلُق مخصوص وسيرة مخصوصة ، فجنودها وشرطتها ومحاكمها وضرائبها وخطتها الإدارية وسياستها الخارجية وقوانيها للسلم والحرب كلها تختلف اختلافاً كلياً عن أمثالها في الدول اللادينية ، فقضاة هذه الدول ورؤساء محاكمها ليسوا بأهل لأن يناط بهم أي عمل ـ مهما كان حقيراً ـ في محاكم الدولة الإسلامية ، وكذلك رؤساء الشُرطة في تلك الدول لا يستحقون أن يفوض إليهم في الدولة الإسلامية حتى ولا وظيفة شرطي من عامة الشُرَط . وقواد العساكر وأمراء الجنود فيها لا يمكنهم أن يتجندوا في الجيش الإسلامي . وأما وزراء خارجية تلك الدول اللادينيـة فلاعجب إذا سيقوا في الدولة الإسلامية إلى السجن عقاباً لهم على ما اقترفوه من الكذب وما ابتكروه من أساليب المكر والخديعة فضلاً عن أن يتولوا منصباً من مناصب المسئولية فيها .

وبالجملة فإن كلّ من أُعد لإدارة الدول اللادينية ورُبيَ تربية خلقية وفكرية ملائمة لطبيعتها لا يصلح لشيء من أمور الدولة الإسلامية ، فإنها تتطلب وتقتضي أن يكون سائر أجزاء حياتها الاجتماعية ، وجميع مقومات بنيتها الإدارية من الرعية والمنتخبين والنواب والموظفين والقضاة والحكام وقواد العساكر والوزراء والسفراء ونظار (مديري) مختلف الدوائر والمصالح ، من الطراز الخاص والمنهاج الفذ المبتكر ، وهي

تتطلب بسجيتها رجالاً يخشون الله ويخافون حسابه ، ويؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا ، والنفع والضرر الخلقيان عندهم أثقل في الميزان وأرجح كفة من النفع العاجل والضرر اللاحق في الحياة العاجلة ، وهم يمسكون في كل حال بما وضع الله من دستور وبما سنَّ لهم من منهاج للعمل للأبد ، وهم يسعون دائماً وراء ابتغاء مرضاة الله ، ولم يتخذوا من أغراضهم القومية والشخصية والشهوات سلطاناً على أنفسهم ، وطهروا أنفسهم من ضيق النظر والتعصب الأعمى ، ولا تأخذهم نشوة الكبرياء إذا آتاهم الله نصيباً من الملك والسلطان ، ولا يمدون أعينهم إلى زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، وليسوا بجُوَّعٍ إلى الثروة والجاه ، وإذا امتلكوا خزائن الأرض كانوا أمناء بررة ، وإذا ألقيت إليهم مقاليد الأمر حرّموا النوم على أنفسهم وقضوا الليالي ساهرين حراساً لتكون الرعية في مأمن على أنفسهم وأحوالهم وأعراضهم ، وإذا دخلوا أرضاً غزاة فاتحين أمِن أهلها منهم وما خافوهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم بل وجدوا كل جندي منهم حافظاً لعزهم وشرفهم ، ذابّاً عن حريمهم ، ومع ذلك لهم سمعة حسنة وكلمة مسموعة في السياسة الدولية بحيث تعتمد الأمم على حبهم للحقّ والعدل وتثق بوفائهم للعهود ورعيهم للذمم . فهؤلاء وأمثالهم ومن في طبقتهم يمكن أن تتكون منهم الدولة الإسلامية ، وهم الذين يقدرون على إدارة أمرها وتسيير دفة شؤنها . وأما عبَّاد الشهوات وطلاب الدنيا الدنيئة

الذين يتبعون ما يسمى اليوم « بمذهب المنفعة » والذين من ديدنهم أن يضعوا مباديء جديدة بين كل حين وآن إرضاءً لشهواتهم وأغراضهم ومسايرة لمنافعهم الذاتية أو مآربهم القومية ، والذين لا يخافون الله ولا يرجون الآخرة ، بل ليس نصب أعينهم إلا النفع العاجل والرقيّ المادي في كلّ ما يأتون من عمل وما يتخذونه من خطة ، فهؤلاء لا يصلحون أن يُفوض إليهم أمر الدولة الإسلامية ، بل الحق أن مثلهم فيها كمثل أَرَضَةٍ في خشبة تأكلها أكلاً وتهددها بزوالها من مكانها .

سبيل الانقلاب الإسلامي :

إذا عرفت ما ذكرت من وضعية الدولة الإسلامية ، فتعال نفكر فيما عسى أن يكون من سبيل لتحقيقها والوصول إليها ، فالدولة لا تتكون إلا وفق ما يتهيأ لها من العوامل الفكرية والخلقية والمدنية في المجتمع كما قلت في مفتتح الكلام ، فكما لا يمكن أن تكون الشجرة منذ أول أمرها إلى أن يتم نماؤ ها شجرة كمثرى أو ليمون مثلاً ، ثم إذا آن أوان إثمارها انقلبت شجرة تفاح أو رمّان ، كذلك الدولة الإسلامية فإنها لا تظهر دولة إسلامية بطريقة خارقة للعادة ، بل لا بد لإيجادها وتحقيقها من أن تظهر أولاً حركة شاملة مبنية على نظرية الحياة الإسلامية وفكرتها ، وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الإسلام وتوائم طبيعته . يقوم بأمرها رجال يظهرون استعدادهم التام للاصطباغ بهذه الصبغة المخصوصة من

الإنسانية ، ويسعون لنشر العقلية الإسلامية ويبذلون جهودهم في بث روح الإسلام الخلقية في المجتمع .

ثم يقوم على هذا الأساس نظام للتعليم والثقافة يهيء رجالاً مطبوعين بطابع الإسلام الخاص ، ويتخرج بفضله المؤرخون المسلمون والفلاسفة المسلمون ، والمسلمون الحاذقون في العلوم الطبيعية والاقتصادية والمالية ، والذين لهم حظ وافر في القانون والسياسة وفي كل فرع من العلوم والفنون ، من الذين امتزجت الفكرة الإسلامية بلحومهم ودمائهم ، والذين تثقّفت أذهانهم واتسعت مداركهم اتساعاً يؤهلهم لتدوين نظام للأفكار والنظريات ومنهاج كامل للحياة العملية مبني على مبادىء الإسلام وقواعده ، والذين آتاهم الله من الموهبة والمقدرة ما يمكنهم أن يقارعوا به أئمة الفكر ممن لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ويجاذبوهم بحبل حتى يبسطوا سلطان سموهم الفكري على عقولهم وأذهانهم ويرغموهم على الاستسلام لزعامتهم الفكرية والعقلية . ثم تأخذ هذه الحركة تنمو صُعداً ، مع ما لها من السيادة الفكرية والعقلية ، مكافحة ومقاومة للنظام الباطل المعوج السائد في المجتمع الإنساني ، لأنه في مثل هذا الكفاح والمقاومة يُمتحن القائمون بالدعوة وحاملوا لوائها بأنواع من المصائب والشدائد ، فيقاسون الآلام والأهوال ضرباً وقتلاً وإجلاء عن الوطن ، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجَلَد وإخلاص وعزم قوي ، ويبتلون بالشدائد ويُفتنون ، فيخرجون

منهـا كالتبـر المسبوك . وإنهـم خـلال هـذا الكفـاح ، وطوال مدة هذا النضال والصراع يُمثّلون ـ بكل ما يقولون وبكل ما يعملون ـ النظرية التي قاموا بالدعوة إليها ، ويظهر من كل ما يصدر عنهم من قول أو عمل أن الدولة الفكرية التي يدعو إليها أمثال هؤلاء الرجال الذين قد استولوا على الأمد في الصدق والعفاف وصفاء السريرة والإخلاص في العمل والاستمساك بالمباديء والتجـرد عن الأغراض والشهوات ـ لا بد أن يكون فيها سعادة للبشر وسلام ودَعَةٌ للإنسانية المعذبة ، فهناك تنجذب إلى هذه الدعوة أفئدة الذين يوجد فيهم شيء من الخير والصلاح وأما أصحاب الطباع الفاسدة والذين في قلوبهم مرض ممن يتبعون الأهواء والشهوات فسوف تختفي أصواتهم ويضمحل نفوذهم شيئاً فشيئاً بإزاء تيار الحركة الجارف وسيرها الحثيث ، وهكذا يحدث انقلاب عظيم في أفكار العامة وتتعطش الحياة الاجتماعية إلى هذا النظام المخصوص من الحكم وهناك لا يستطيع أن يحيا في هذا المجتمع الثائر المتبدل نظام آخر غير النظام الذي أعدت له المعدات . وتهيأت له العوامل . ولعمر الحق إن هذا النظام الجديد إذا قام وتشكلت هيأته مرة فلا يعوزه رجال أكفاء للمناصب العديدة المتشعبة في إدارة الحكومة من الموظفين إلى النظار (المديرين) والوزراء والقّواد ، وذلـك بفضل منهاج التعليم والثقافة الذي أجملت الاشارة إليه آنفاً .

هذا هو طريق الانقلاب الإسلامي والسبيل الفطرية

لتحقيق فكرة الدولة الإسلامية . ولا يخفى على من له إلمام بتاريخ الانقلابات والتطورات في الأمم قديماً وحديثاً أن كل نوع من الانقلاب يستدعي حركة وزعامةً وعمالاً وشعوراً اجتماعياً وبيئةً خلقية تلائمه ، فالثورة الفرنسية مثلاً كانت محتاجة إلى ذلك الأساس الفكري والخلقي الذي أوجده (روسو) و(فولتير) و(منتسكيو) وأمثالهم من مفكري فرنسا ، والانقلاب الروسي الشيوعي ما كان ليظهر ويبرز إلى عالم الوجود إلا بالنظام الفكري الذي شيدّ بنيانه ووطدت دعائمه زعامة (كارل ماركس) و(لينين) و (تروتسكي) وجهود مئات من دعاتهم ومتطوِّعيهم الشيوعيين الذين أشربوا في قلوبهم الشيوعية وتطَبّعوا بطابعها ، وكذلك النازية الألمانية لم تكن لترسخ أصولها إلا في أرض غذّاها المفكرون أمثال (هيجل) و(فيشته) و(غوته) و(نيتشه) وغيرهم بنظرياتهم وأفكارهم وأوجدوا لها بيئة خلقية ونفسية ومدنية مخصوصة ، وسقاها هتلر ورفاقه بزعامتهم العبقرية الجبارة .

فكذلك شأن الانقلاب الإسلامي فإنه لا تثمر شجرته ولا تؤتي أكلها إلا إذا قامت حركة شعبية على أساس النظريات والأحكام القرآنية ودعامة سيرة محمد ﷺ وسنته الطاهرة ، تقوم هذه الحركة الشعبية وتنهض وتقوى حتى تُغَيِّر بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية والخلقية والنفسية والثقافية السائدة في الحياة الاجتماعية وتأتي بنيانها من القواعد . والذي يصعب عليّ إدراكه ما يزعمون من حدوث انقلاب إسلامي إثر حركة قومية نمت وازدهرت من جراء

تفاعل هذا المنهاج الثقافي والتعليمي العقيم الذي أناخ علينا بكلكله منذ زمن ، والذي شُيّد صرحه المعوج على أساس الأخلاق المنفعية[١] وفلسفة الذرائع[٢] فحسب ، وإني لا أؤمن بمثل الخوارق والمعجزات التي كان يؤمن بها مسيو رينو[٣] رئيس وزراء فرنسا سابقاً ، بل الذي أعتقده أن النتائج ما هي إلا تبع لما يؤتى به من محاولات وما يبذل لها من جهود .

الأماني المعسولة :

يرى عامة المسلمين في بلادنا أن تنظيم صفوف المسلمين إنما هو شفاء لكل داء ، ويظنون أن سبيل الوصول إلى الدولة الإسلامية أو « الإسلام الحر في الهند الحرة » إنما هو أن يجتمع كل من يُعدُّ من أفراد الأمة المسلمة الحاضرة منضوين تحت لواء واحد ، عاملين تحت زعامة مركزية واحدة . ولكن الحقيقة أن ذلك منهاج قومي خالص ، فإن أي أمة من أمم العالم إذا أرادت إعلاء شأنها والنهوض بأمرها لا تختار إلا نفس الخطة التي اختارها المسلمون اليوم ، ولا فرق في ذلك بين الهنادك والألمان والانكليز ، وإن زعيماً متهالكاً

---

(١) التي لا تقصد في أعمالها إلا مجرد المنفعة .

(٢) المذهب العملي الذي يقضي بصحة الأعمال أو فسادها حسب النتائج التي تظهر في هذه الدنيا (م. الندوي) .

(٣) قام المسيو رينو يخطب من إذاعة باريس وذلك قبل سقوط فرنسا بأيام في الحرب العالمية الثانية ـ وكان رئيس وزرائها وقتئذ ـ فقال : « الآن لا ينجي فرنسا إلا معجزة ، وأنا أعتقد بالمعجزات » .

في حب قومه ، حاذقاً في المداورات الدبلوماسية ، عارفاً بدقائق السياسة العملية وبُنيّات طرقها ، كيّساً ماهراً في تنفيذ الأمر وتسيير دفة الحكم ، يصلح أن يكون زعيماً لأية أمة تطمح إلى ارتفاع شأنها ونهوض كلمتها بين الأمم سواء كان ذلك الزعيم هندكياً كأمثال غاندي وجواهر لآل نهرو أم أوربياً مثل هتلر وموسوليني ، وإن مئات الألوف من الشبان الذين يطيعون قائدهم بدافع النزعة القومية ويظهرون استعدادهم للنضال والكفاح تحت لواء زعيمهم ، ليقدرون حقاً أن ينهضوا بأمتهم ويرفعوا راية مجدها سواء في ذلك آمنوا باليابانية أم الصينية أم الجرمانية ، فإن القوانين الطبيعية للنهوض بالقومية وإعلاء كلمتها واحدة لكل أمة وفي كل زمان . فإن كان المسلمون يعتبرون الإسلام قومية عنصرية تاريخية ولا يطمحون بأبصارهم إلاّ إلى إعلاء شأن تلك القومية العنصرية المتوارثة ، فلا جرم أن الخطة التي اختاروها هي الحق والصواب ، ولا يبعد أن يتسنى لهم بذلك أن ينجحوا في تأسيس دولة قومية أو ينالوا على الأقل حظهم الموفور المنشود في ادارة الدولة الوطنية وأما أن يُرجى من هذا المنهاج وهذه الخطة أن تكون لنا عوناً في الوصول إلى غاية « الانقلاب الإسلامي » ومطمح « الدولة الإسلامية » ، فذلك من باب الأماني المعسولة ، بل الحق أن كل خطوة في هذا السبيل وعلى هذا المنهاج لا تكون إلا خطوة متقهقرة تُرجعنا إلى الوراء وتبعدنا عن غايتنا .

وغير خاف أن الأمة التي تتسمى اليوم بالمسلمين قد جمعت بين أحضانها كل رطب ويابس من الأفراد والرجال ، فقد يوجد فيهم كل ما يوجد في الأمم الكافرة من أنواع الطبائع والأخلاق ، وهم يسابقون الكفار ويزاحمونهم بالمناكب في شهادة الزور في المحاكم ، ويبارونهم في أخذ الرُّشى وارتياد دور البغاء وارتكاب السرقة والتجرؤ على غيرها من الأخلاق الذميمة ، وكذلك يسيرون في كسب معايشهم وابتغاء رزقهم سير الكفار ، فأنت ترى أن المحامي المسلم يدافع عن موكله كالمحامي الكافر ، وهو يعرف أن قضيته باطلة وأن الحق في الجانب الآخر ، يدافع عن الظالم وقلبه خال من خشية الله ، وهكذا تجد الغني المسلم إذا أثرى والموظف المسلم إذا تولى منصباً يأتيان كل ما يأتيه الغني الكافر والموظف المشرك من المنكرات وسيئات الأعمال .

فالأمة التي وصلت إلى هذا الدرك الأسفل من الانحطاط الخلقي إذ حشرت كل غثّ وسمين من أفرادها في زمرة واحدة كما تجمع السود والبيض من الغنم في قطيع واحد ؛ ورَوَّضَتْها على رَوَغان الثعالب أو دربتها على افتراس الذئاب بتربية سياسية أو تمرين عسكري ، فربما ينفعها ذلك في الاستيلاء على الغابات وتنفيذ الأمر والنهي في سباعها الضواري ، إلا أنه لا يلائم طبيعة الانقلاب الإسلامي ولا يجدي شيئاً في مهمة إعلاء كلمة الله وإقامة دينه . فمن ذا الذي يعترف لهم بسمُوّ أخلاقهم ويؤمن بشرف سيرتهم ؟ وأية

عين تغضُّ لهم إجلالاً وإكباراً ؟ ومن ينجذب قلبه إلى الإسلام إذا رآهم وشاهد ما هم عليه من العادات والتقاليد ؟ وكيف يدخل الناس في دين الله أفواجاً متأثرين بأخلاقهم الزكية ؟ وأية أمة تذعن لمواهبهم وسجاياهم وتعترف لهم بالسيادة الروحية ؟ وفي أي أرض تستقبلهم الشعوب وترحب بهم ترحيب العبيد والبؤساء بمن ينقذهم من براثن العبودية والشقاء ؟ .

إن إعلاء كلمة الله والدعوة إلى القيام بها تحتاج إلى رجال ذوي صلاح ، يتقون الله في السر والعلن ، ممن لا يلهيهم عن العمل بالشريعة والاستمساك بعروتها شيء من مطامع الدنيا ولا تصرفهم عن ذلك العقبات والشدائد . ولا يُهمُّ الدعوة بعد ذلك هل برز للعمل أمثال هؤلاء الرجال من الذين ورثوا الإسلام عن آبائهم أو ممن قبلوا هذه الفكرة بأنفسهم . وأيم الحق إن عشرة رجال من أمثال هؤلاء أرجح كفة وأثقل وزناً في ميزان الدعوة الإسلامية من الآلاف المؤلفة من ضعاف الأخلاق الذين تقدم ذكرهم آنفاً فالإسلام ما به من حاجة إلى خزانة من النقود الزائفة المموهة المطبوع عليها بطابع الدنانير ، بل هو ينظر في النقود ومعدنها قبل أن يفتتن بلمعانها وبريقها ، وذلك ليعرف رديئها من جيدها وزائفها من صحيحها ، فدينار واحد من الذهب الخالص أثمن في نظره بكثير من القناطير المقنطرة من النقود الزائفة . ثم إن الزعامة التي تستدعيها مهمة إعلاء كلمة الله زعامة لا يمكن أن تباع

وتشترى في سوق المطامع والشهوات ، فلا تتضعضع ولا تتلجلج ولا تنحرف قيد أنملة عن المباديء التي قامت بالدعوة إليها وحملت لواءها بيدها ، ولو هلك المسلمون كلهم جوعاً أو قُتلوا صبراً دفاعاً عن تلك الخطة المستقيمة والعزيمة القوية الجبارة وتأييداً لها .

وأما الزعامة التي لا تهتم إلا بالنفع العاجل ولا تنظر إلا في مصالح قومها ، وتنتهج كل منهج يعود بالنفع المادي على شعبها ، وتنبذ مبادئها وأصولها وراء ظهرها إذا رأت الفائدة العاجلة فيما يناقضها ، والتي لا يُرى عليها مسحة من تقوى الله والأخلاق الزكية . فلن تصلح للوصول إلى الغاية الجليلة التي يطمح إليها الإسلام .

ثم إن منهاج التعليم والتربية الحاضر الذي وضعت قواعده حسب القول الشائع : « در مع الدهر كيف دار » لا يمكن أن يكون ملائماً لطبيعة الإسلام وخدمة الدين القويم الذي يقضي على الناس ويفرض عليهم أن يلتزموا الطريق الذي أوضحه الله في كتابه ، ويعضوا عليه بالنواجذ مهما كان من اشتداد الأخطار والأهوال . وإني على مثل اليقين في نفسي من أنه لو خُوِّل المسلمون اليوم أن يؤسسوا دولة لهم في بقعة من بقاع الأرض لما استطاعوا أن يقوموا بإدارة شئونها وتسيير دفتها وفق المباديء الإسلامية ولا ليوم واحد ، فإنكم معشر المسلمين ، لم تعدوا المعدات اللازمة ولا هيأتم العوامل الكافية لتنشئة رجالكم وشبابكم على الطراز

المخصوص للتفكير والأخلاق الذي تحتاج إليه الدولة الإسلامية لتسيير دفة أمرها وتنظيم دوائرها العديدة المتشعبة من الشرطة والقضاء والجند والخراج والمعارف والشئون المالية والسياسية الخارجية ، ولا جرم أن هذا التعليم الذي يُلَقَّنُهُ الطلاب في الكليات والجامعات العصرية اليوم يقدر على تخريج العمال والموظفين بل القضاة والوزراء للحكومات القائمة على مبادىء غير مبادىء الإسلام . ولكنه للأسف ـ وعسى أن لا يسوءكم إذا قلت بصراحة ووضوح ـ لا يستطيع أن يُعِدَ للمحاكم الإسلامية خادماً من خدامها ، أو يخرج للشرطة الاسلامية شرطياً من عامة الشرط . ولا يختص ذلك بالتعليم العصري وحده ، فإن منهاج تعليمنا القديم الذي لم يؤمن بعد بدورة الأرض يماثل التعليم العصري في هذا الباب . وقد بلغ من عقمه وتحجره في هذا الشأن أنه لا يقدر أن يهيء للدولة الإسلامية في العصر الحاضر قاضياً واحداً أو وزيراً للمالية أو رجلاً يقوم بوزارة الحرب أو مديراً للمعارف أو سفيراً لخارجيتها . فقل لي بربك ماذا أقول في الذين يلهجون بذكر « الدولة الإسلامية » ثم لا يعدون لها معداتها ولا يتذرعون لها بشيء من الوسائل ، سوى أنهم لم يعرفوا حقيقة « الدولة الإسلامية » ولم يدركوا مغزاها أصلاً .

ومن الناس من يقول بتأسيس دولة قومية للمسلمين ولو غير مستندة إلى قواعد الشريعة الغراء ، يقولون به ويدعون إليه ويغتنمون هذه الفكرة في المرحلة الأولى ، ويزعمون أنه

إذا تم لهم تأسيس دولة قومية يمكن تحويلها تدريجاً فيما بعد إلى دولة إسلامية بوسائل التعليم والتربية وبفضل الإصلاح الخلقي والاجتماعي ولكن شهادات التاريخ والسياسة وعلوم العمران تُفَنِّد مثل هذه المزاعم وتعدّها من قبيل المستحيلات ، وإن نجح مشروعهم كما يزعمون ، فلا شك أنه يكون معجزة ، فإن نظام الحكومة له أصل ثابت في الحياة الاجتماعية ، كما قلت في مُفتتح هذا المبحث ، فلا يمكن أن يحدث انقلاب ثابت في نظامها بطريق من الطرق إلا إذا سبقه تبدّل في الحياة الاجتماعية . ولنضرب لك مثلاً الخليفة العادل الزاهد « عمر بن عبد العزيز » رحمه الله فإنه ـ وإن كان وراءه عدد غير قليل من التابعين وأتباعهم ـ ما رزق نجاحاً في مهمته ، لأن الحياة الاجتماعية في عصره لم تكن مستعدة بأجمعها لما كان يريد من الإصلاح . وهذا « المأمون بن الرشيد » ، كبير ملوك بني العباس ودُرَّة تاجهم ، أراد أن يحدث شيئاً من التغيير في نظام الحكومة ، أوضاعها الظاهرة دون مبادئها وأصولها ، ولكن لم يتحقق له ما أراد ، وكذلك الملكان العظيمان من ملوك الهند المسلمين « محمد تغلق » (٧٢٦هـ ـ ٧٥٢هـ » «وعالمكير» (١٠٦٨هـ ـ ١١١٨هـ) على ما كانا عليه من الورع والتجرد عن المطامع والشهوات الدنيئة ، لم يتمكنا من إحداث أي تغيير في نظام الحكومة .

وقد كان هذا كله في عصر الملكية المطلقة حينما كان للملك الأمر والنهي ، فليت شعري ! كيف يمكن أن تكون

دولة قومية مؤسسة على طراز الديمقراطية ، عوناً لنا ومساعداً في استكمال هذا الإصلاح الأساسي وإنجاز مهمته ؟ فإن السلطة في الحكومات الديمقراطية لا ينالها إلا من رضي عنه الجمهور ووضعوا ثقتهم فيه ، فإن لم تكن العقلية الإسلامية والفكرة الإسلامية تغلغلتا في عروق الناخبين وامتزجتا بلحومهم ودمائهم ، وإن لم تكن الأخلاق والسجايا الإسلامية الزكية مهوى أفئدتهم ومقصد آمالهم ، وإن لم يكونوا مستعدين للاستسلام والخضوع لذلك العدل الإلهي النزيه وتلك المبادىء الثابتة الراسخة التي هي قوام الدولة الإسلامية وقطب رحاها ، إن لم يكن الجمهور متصفين بهذه المزايا ، فلا يمكن لمسلم تقيّ صادق النزعة كامل الإيمان أن يُنتخب عضواً في مجالسهم النيابية والتشريعية بأصواتهم وآرائهم وإنما ينال السلطة والتغلب بهذه الطريقة كل من يشهد سجل الإحصاء الرسمي له بالإسلام ، وإن لم يعرف من الإسلام إلا اسمه وشهدت نظرياته وأعماله بالمروق عن الدين والجهل بمبادئه . ومعنى ذلك أنه إن انتقل زمام الأمر إلى أمثال هؤلاء الرجال ، لا يكون موقفنا في دائرة حكمهم إلا مثل ما يكون تحت الحكومات التي لا تدين بالإسلام ، بل الحق أن موقفنا في دائرة حكمهم يكون أكثر عنتاً ، وأسوأ حالاً ، لأن الدولة القومية التي اتخذت لنفسها شارة من الإسلام خداعة ، تكون أجرأ بكثير من الدول غير الإسلامية على القيام في وجه الانقلاب الإسلامي واضطهاد القائمين به ، فالأعمال التي تعاقب عليها الدول غير الإسلامية بالحبس مثلاً لا تتحرج تلك

الدول القومية من المعاقبة عليها نفسها بالإعدام والنفي . وضغثٌ على أبالة أن زعماءها وقوادها لا يزالون مع هذا وذلك ، يُلقّبُون بالغُزاة المجاهدين في حياتهم ويُعَدُّون من الشهداء الصالحين بعد مماتهم . فالخطأ ، كل الخطأ ، أن نظن أن مثل هذه الدول القومية يمكن أن تساعدنا في مهمتنا وتؤازرنا في إحداث الانقلاب الإسلامي بوجه ما .

فالمسألة أمامنا الآن : أنه كان لا بد لنا في مثل هذه الدول القومية أيضاً من سعي وكفاح لتغيير أسس الحياة الاجتماعية وتشكيلها من جديد ، وإذا كان علينا أن نسعى وراء هذه الغاية ونواصل جهادنا في هذا السبيل باذلين مهجنا وأرواحنا من غير معونة من الدولة أو على الرغم من اضطهادنا وصدها عن سبيل الله - فما الذي يمنعنا من انتهاج هذا المسلك والجري على هذه الخطة منذ اليوم ، وما لنا نضيع الأوقات سدى في انتظار الدولة القومية المرجوة المتسمة بالإسلام كذباً وزوراً ؟ ولماذا نُسَفِّه أحلامنا ونحمق أنفسنا بإضاعة قوانا وصرف مجهوداتنا في سبيل إقامتها وتوطيد دعائمها ونحن نعلم علم اليقين أن تلك الدولة القومية ستكون عقبة كئوداً في سبيل غايتنا ، فضلاً عن أن تكون مؤازرة لنا ومساعدة في مهمتنا ؟ .

المنهاج المخصوص للحركة الإسلامية :

يحسن بي الآن أن آتي ببيان تاريخي يتضح به كيف يحدث تغيير جوهري في أساس الحياة الاجتماعية وكيف

يؤسس بنيانها من جديد لتشييد صرح الانقلاب الإسلامي كذلك أعرض عليكم المنهاج العملي المخصوص الذي يصعد بنا إلى المرتقى الذي نطمح إليه بأبصارنا في هذا الكفاح .

الإسلام في الحقيقة هو عبارة عن الحركة التي تريد بناء صرح الإنسانية بأسره على حاكمية الله الواحد الأحد ، وهذه الحركة جارية على سنن واحدة منذ أقدم عصور التاريخ ، وقادتها هم صفوة رجال الإنسانية الملقبون برسل الله ، فإن أردنا القيام بهذه الحركة والعمل على تسييرها ، فلا بد لنا من اتباع هؤلاء القواد وقُفُوّا آثارهم ، لأنه ليس ، ولا يمكن أن يكون ، لهذا النوع من الحركة من برنامج عملي غير ذلك ، وحينما نشرع بهذا الصدد في تتبع معالم الأنبياء عليهم السلام ، والبحث عن آثار حياتهم تعترض سبيلنا عقبة عظيمة ، فإن كتب التاريخ لم تحفظ لنا عن تلك الرسل وعما قاموا به من عمل وما اتبعوه من خطة إلا نزراً قليلاً لا يروي الغليل ولا يشفي العليل .

نعم ! قد ورد في القرآن الكريم لمحات موجزة عن أعمالهم وطرق دعوتهم ، لكنها لا تؤدي الغرض المطلوب ، بحيث يمكن ان يُتَّخَذ على أساسها مشروع للعمل جامع . وأما العهد الجديد من الكتاب المقدس ، فلا جرم أنه يشتمل على أقوال معزُوَّة الى السيد المسيح ـ عليه السلام ـ ضعيفة الإسناد ، يتضح منها بعض الوضوح كيف تدار الحركة

الإسلامية في بداءة عهدها ، وما هي المسائل التي تعرض لها في أول نشأتها ؟ ولكنه ما قُدِّر لسيدنا المسيح عليه السلام أن يجتاز المراحل التي تمر بها الحركة في أدوار نضوجها وبلوغها مراقي الكمال ، ومن ثم لا نجد فيما نسب إليه من الأقوال عيناً ولا أثراً من تلك المراحل والأدوار . فلم يبق من تلك الرسل إلا سيدنا ومولانا الرسول النبي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ فحياته المباركة هي المرجع الوحيد لاجتلاء وجه الحقيقة في هذا الشأن .

ولا أقول ذلك عن هوى في ذاته عليه السلام أو شغف بشخصيته فحسب ، بل الحق أن كل من يريد القيام بهذه الحركة والاطلاع على ما تجتازه من الأدوار المتشعبة مضطر بطبيعة الحال إلى الاستقاء من عين سيرته الصافية . فإن محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو القائد الوحيد من بين قواد هذه الحركة ، الذي نجد في سيرته الجليلة تاريخاً شاملاً لهذه الحركة من أول عهدها بالدعوة إلى تأسيس الدولة الإسلامية ، وكذلك نجد في مشكاة سيرته الطيبة ما يقتبس منه ويستضاء به في كل ما يعرض من المسائل والمشاكل بعد تأسيس الدولة ، من هيئتها ودستورها وسياستها الداخلية والخارجية ونظم تسيير الإدارة ـ نجد في تاريخ حياته الكريمة معلومات تفصيلية مسندة وافية عن سائر هذه الأمور . وها أنا ذا أعرض عليكم صورة إجمالية لمنهاج العمل المختار في هذه الحركة ، مستقياً من ذلك المنهل الصافي ، ومستنداً إلى ذلك المرجع الوحيد ، وبالله التوفيق .

فالذي يعرفه القاصي والداني أن العالم كان مصاباً بأمراض خلقية وعمرانية واقتصادية وسياسية تقتضي طبيباً نطاسياً يعالجها ويخفف من آلامها ، حينما بعث النبي ﷺ داعياً إلى الله ، فهناك تسلط روما وفارس ، وهنالك تنافس وامتيازات بين مختلف طبقات البشر واستغلال اقتصادي ممقوت ، وفوق كل ذلك الأخلاق الذميمة الفاشية في سائر أقطار العالم . وكذلك بلاد العرب نفسها لم تكن آمنة مطمئنة ، وفيها ما فيها من معضلات تحتاج في حلها إلى زعيم بارع حاذق بأدواء الأمم ، فإن القوم كان قد عمّهم الجهل وغشيهم الانحطاط الخلقي والفقر والفوضى وما ينتج عنها من الغارات والحروب الأهلية ، والبلدان الساحلية العربية إلى بلاد اليمن ومقاطعة العراق الخصيبة كلها كانت خاضعة للفرس ، وفي الشمال كان قد تسرب النفوذ الرومي إلى ثغور الحجاز ذاتها أو كاد ، وإن تَعْجَب فَعَجَبٌ تغلغل اليهود الماليين في أعماق الحجاز واتخاذهم فيها لأنفسهم حصوناً منيعة حيث كانوا يأكلون الربا ويوقعون العرب في حبائلهم وينشبون أظافرهم ـ أظافر الربا الفاحش ـ في لحومهم وأبدانهم . وبإزاء شاطئها الغربي كان يرفرف لواء مملكة الحبشة النصرانية ، وهي التي كانت تولتِ كيد الغارة على مكة منذ قليل من السنين . وكذلك كان بأرض نجران بين الحجاز واليمن ، عصبة أخرى من النصارى ، متصلة بالحبشة بشتى العلاقات السياسية والاقتصادية . . كان هذا كله ولكن

القائد الذي اصطفاه الله من بين عباده لهداية البشر ، لم يتعرض في أول أمره لإحدى تلك المسائل المفصلة العديدة المتشعبة ، بل قام في الناس يدعوهم ويهيب بهم بملء صوته أن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت .

وما كان ذلك كذلك لأن هاتيك المسائل لم تكن في شيء من الخطورة أو مما لا يستحق الاهتمام به في نظر القائد ، بل الحق أنه تعرض لكل واحدة من تلك المسائل وأوجد لها حلاً ميسوراً فيما بعد ، كما يعرف كل من له أدنى إلمام بالتاريخ ، لكنه في أول أمره حصر جميع مجهوداته في بث هذه الدعوة ، صارفاً وجهه عما عداها ، وذلك أن كل نوع من أنواع الفساد الاجتماعي والخلقي الذي يحدث في المجتمع الإنساني إنما ينشأ ـ حسب ما يراه الإسلام عن علة أساسية واحدة ، وهي أن يجعل الإنسان نفسه مستقلاً بأمره غير مسئول أمام أحد ، وبلفظة أخرى أن يتخذ نفسه إلّهه أو يتخذ من دون الله آمراً مطاعاً يخضع له وينقاد لأمره ، سواء كان ذلك الآمر من البشر أم من غيره . وما دام هذا الفساد يسري في عروق الحياة الاجتماعية ، لا يمكن أن ينجح أي مشروع للإصلاح الظاهري في اقتلاع جراثيم الشرور الفردية أو الاجتماعية فإن سدْت ثلمة ظهرت بجانبها ثلمات أخرى ، فلا سبيل إلى الشروع في مهمة الإصلاح الحقيقي إلا بأن تُجَرَّدَ العقول من هوى الاستقلال بنفسها وشهوة الأنانية الكاذبة ويُعلّم الإنسان ويُلقَّن تلقيناً أن :

« هذا الكون الذي تعيش فيه وتتنفس لا يجري أمره من غير سلطان قاهر، بل له ملك هو الحاكم المتصرف في شئونه، وما حاكميته بحاجة إلى أن تسلم بها أو تعترف بها، وكذلك لا تقدر أن تقضي عليها أو تتمكن من الخروج عن حدود ملكوته. فما تبجحُك بالاستقلال بازاء هذه الحقائق الثابتة إلا ظن خاطيءُ وغلطة حمقاء، عائد ضررها عليك، لا يجني شْرها إلا أنت. فالعقل والشعور بالحقيقة الواقعية يقتضيان أن تطأطيءَ رأسك أمامه، جلَّت قدرته وتعالى شأنه، وتكون له عبداً قانتاً مطيعاً لأوامره ».

وكذلك ينبغي أن تُعرض على الإنسان وجهة أخرى من تلك الحقيقة الناصعة: « بأنه ما من حاكم ولا ولي ولا مليك مقتدر لهذا الكون إلا ذلك الإله الواحد الفرد الصمد، وأنه هو الحاكم القاهر الذي لا معقب لحكمه ولا شريك له في الملك، ولا ينفذ في السموات والأرض إلا أمره. فلا تكن إلا عبداً لله ولا تأتمر إلا بأمره ولا تسجد لأحد من دونه، فإنه ليس هناك من صاحب جلالة، فالجلالة كلها مختصة بذاته، جل وعلا، وليس هناك من صاحب قداسة، فالقداسة بأسرها مركزة فيه، تقدست أسماؤه، وليس هناك من صاحب سمو، فالسمو لا يستحقه أحد من دونه، تعالى شأنه، وليس هناك من صاحب سيادة، فالسيادة بأجمعها مقتبسة من شرفه، جلت قدرته وعظم شأنه، ولا شارع من دونه، فالقانون قانونه، ولا يليق التشريع إلا بشأنه ولا يستحقه إلا هو، ولا ملك ولا رازق ولا ولي إلا هو، وليس من دونه من

يسمع دعاء الناس ويستجيب لهم . وليست مفاتيح الكبرياء والجبروت إلا بيده ، ولا علو لأحد ولا سمو في هذه الدنيا ، فكل من في السموات والأرض عباد أمثالك والرب هو الله وحده . فارفض كل نوع من أنواع العبودية والطاعة والخضوع لأحد من دونه ، وكن عبداً لله ، قانتاً مستسلماً لأوامره » .

فهذا أصل كل إصلاح وأسُّه ، وعلى هذا الأساس يقوم ويؤسس من جديد بنيان السيرة الفردية والنظام الاجتماعي كله على طراز خاص ، وبذلك يُحَلُّ جميع ما حدث من المشاكل في المجتمع البشري منذ أبي البشر آدم إلى يومنا هذا ، وبذلك يفك كل ما يحدث من المعضلات في المستقبل إلى يوم القيامة ، وذلك بأسلوب فذّ مبتكر لم يسبق له مثيل .

قام سيدنا ومولانا الرسول النبي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ بدعوة هذا الإصلاح الأساسي من غير تهيُّؤ سابق ومن غير أن يأتي بأعمال تمهيدية للشروع في هذا المقصد الأسمى . بل دعا الناس إلى ذلك مباشرة ، ولم يؤثر أن يسلك طرقاً ملتوية للوصول إلى الغاية المنشودة من هذه الدعوة بأن يأتي باديء ذي بدء بشيءٍ من الإصلاح السياسي والاجتماعي يستهوي به النفوس ويسحر الألباب حتى ينال بذلك شيئاً من القوة الحاكمة ، فيتدرج منها ، مستخدماً إياها ، إلى الغاية المنشودة التي أراد أن يدعو الناس إليها . لا ، لم يكن هذا ولا ذاك ، والذي نشاهده أن عبداً من عباد الله قام في بطحاء مكة وصاح في أهلها بأعلى صوته أن لا إله إلا الله ، ولم

يلتفت إلى شيء دون ذلك طرفة عين ، ولم يكن ذلك فحسب عن جرأة وتحمس في الدعوة خص الله الانبياء بهما ، إنما هو المنهاج الحقيقي للحركة الإسلامية والنهوض بها ، لأن النفوذ والسُّمعة التي تجلب بوسائل أخرى لا تُسمن ولا تغني من جوع في هذا الأمر . والذين يعاونونك على أسس غير هذا الأساس ـ لا إله إلا الله ـ لا يمكنك أن تجد منهم عوناً يشد عضدك ويؤازرك في مهمة التشكيل الجديد المبني على هذا الأساس ، فلا ينفعك في هذا العمل إلا الذين ما دفعهم إليك إلا كلمة « لا إله إلا الله » ، الذين يجدون من أنفسهم ميلاً وانجذاباً إلى هذه الكلمة وحدها ، والذين اتخذوها أساساً لحياتهم وما أجابوا دعوتك ولا نهضوا للكفاح معك إلا على هذا الأساس . فالطراز المخصوص من الحكمة والأناة والتدبر ، الذي لا مندوحة عنه في القيام بالدعوة الإسلامية وتنظيم شئونها ، يقتضي أن يكون الشروع في العمل بالدَّعوة إلى هذا التوحيد الخالص من غير تمهيد ولا مواربة .

فنظرية التوحيد هذه ليست بعقيدة دينية فحسب كما تقدم ذكره آنفاً ، إنما تقضي هذه النظرية على نظام الحياة الاجتماعية المبني على أساس استقلال الإنسان بأمره أو حاكمية غير الله وألوهيته ، وتنقلع بها هذه الشجرة الملعونة من جذورها وينهدم هذا البنيان من أساسه ، ويقوم وينهض بُنيان جديد على أساس آخر غير هذا الأساس .

وهؤلاء المؤذنون اليوم يؤذّنون من مآذنهم خمس مرات

في كل يوم وليلة ويُنادون بأعلى أصواتهم : « أشهدُ أن لا إله إلا الله » ، وأنت ترى أن الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم يسمعون هذا النداء ولا تُقضّ مضاجعهم لسماعه ، وذلك أن الداعي لا يعرف : إلامَ يدعو الناس ؟ ولا الناس يتفطّنون إلى ما تَضُمه الكلمة بين جنبيها من دعوة سامية وغاية جليلة ، ولكن لو علمت الدنيا ما يشتمل عليه هذا النداء من غاية بعيدة المدى ، وأن المنادي ينادي بعزم وإصرار ، لانقلبت الأرض غير الأرض ولتنكرت الوجوه . وما يدريك كيف تستقبل الدنيا ـ الدنيا التي رضعت بلبان الجاهلية وترعرعت في مهدها ـ هذا النداء ، إذا عرفت أن المنادي يقـول أن لا مَلِك إلا الله ، ولا حاكم إلا الله ، ولا أخضع لحكومة ، ولا أعترف بدستور ، ولا أنقاد لقانون ، ولا سلطان عليّ لمحكمة من المحاكم الدنيوية ، ولا أطيع أمراً غير أمره ، ولا أتقيد بشيء من العادات والتقاليد الجاهلية المتوارثة ولا أسلّم شيئاً من الامتيازات الخاصة ، ولا أدين لسيادة أو قداسة ، ولا أستخزي لسلطة من السلطات المتكبرة في الأرض المتمردة على الحق ، وإنما أنا مؤمن بالله ، مسلم له ، كافر بالطواغيت والآلهة الكاذبة من دونه . فما يدريك ، هل تسمع الدنيا وأهلها هذا النداء فتسكت عليه ؟ لا ، لا ، والله ، إنها تنقلب عليك عدوّاً وتتنكر وجوه أهلها لك ويعلنون الحرب عليك بمجرّد سماع هذه الكلمة ، سواء عليك أردت القتال أم لم ترد ، فإنهم يحاربونك لا محالة ويترقبون لك بالمرصاد ، وما أن يسمعوا المؤذن يؤذن بهذا النداء

الحقيقي ، إلا وترى الأرض تبدلت غير الأرض ، وتجد الناس حولك كأنهم تحوّلوا عقارب وثعابين تريد أن تلدغك ، أو انقلبوا وحوشاً ضارية تبتغي أن تنشب مخالبها في بدنك وتفترسك افتراساً .

وهكذا كانت الحال حينما قام النبي ﷺ يدعو الناس إلى هذه الكلمة ، فإن المنادي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان على علم بما يدعو إليه ، وكذلك الذين بلغتهم كلمته لم يخفَ عليهم ما ترمي هذه الكلمة من هدف ، فكل من أحسّ بالخطر وأدرك ما عسى أن يصيبه من ضرر في شيء من مصالحه من جراء انتشار هذه الدعوة ، وثب وثبة وشمّر أذياله لإخفات هذا الصوت المبارك وإطفاء هذا النور الإلهي ، أحسّ السدنة والكهنة في هذا الصوت خطراً على سدانتهم وكهانتهم ، ورأى رؤساء العشائر أن هذا النداء سيأتي بنيان رئاستهم من القواعد ، وأدرك الرأسماليون والمتبجحون بأنسابهم وسلالتهم أن هذا الشرف الذي استبدوا به من دون عامة الناس صائر إلى الانقراض لا محالة ، وكذلك هُواة القومية والذين ورثوا التقاليد عن آبائهم واتبعوها وعكفوا عليها كأنها أوثان بنفسها أحسوا بالخطر الداهم على تلك العادات العريقة .

وبالجملة أحسّ كل من عُبّاد هاتيك الأصنام المختلفة الألوان أن صنمه أصبح على شفا جرف هار ، وأن الطواغيت التي يعبدونها من دون الله محكوم عليها بالانقراض والفناء ،

فوقفوا في وجه الدعوة متحدين متساندين ، عاقدين العزم على قمعها وإلقاء العراقيل في سبيلها ، وذلك بعدما كانوا يتناحرون فيما بينهم ويتقاتلون منذ أمد بعيد .

ففي مثل هذه الحال لم يستجب للدعوة إلا من كانت فطرته نقية مستعدة لقبول الحق وإدراك الحقيقة ، ومن كان مفطوراً على الديانة والصدق بحيث لا يبالي بعد ما عرف الحق وذاق حلاوته أن يقتحم الشدائد ويركب الأهوال ولا يحفل في سبيله بأن يقع على الموت أم يقع الموت عليه . ولا شك أن الدعوة كانت بحاجة إلى أمثال هؤلاء الرجال ، فالذين استجابوا لله ولرسوله باديء ذي بدء ما كانوا يتجاوزون عدد الأصابع ، ثم جعل عددهم يزداد ، يأتون إلى النبي ﷺ فرادى وجماعات ، حتى جعلت الدعوة تنمو صعداً ، وبدأت المقاومة تشتد كل يوم ، فمنهم من طرد من عمله وأبعد عن مكاسب رزقه ، ومنهم من أخرج من داره ، ومنهم من فارقه أصدقاؤه ومعارفه وأقرباؤه الأدنون ، ومنهم من ضرب ضرباً مبرحاً وحبس في السجن وسحب على رمال البطحاء في الظهيرة ، ومنهم من رُمي بالحجارة وقوبل بالسب والشتم على مرأى من الناس ومسمع ، ومنهم من فقئت عينه وشج رأسه ، ومنهم من أغري بالشهوات من النساء والأموال والسيادة والإمارة وأطمع فيها . لقد كان هذا كله ولم يكن عنه مندوحة ، لأن الحركة الإسلامية ما كانت لتقوى وتزداد نمواً وازدهاراً إلا بالصبر على هذا البلاء وتلك المكارة ، وقد كان

من حسنات تلك الاضطهادات وثمراتها الأولى أنه ما كان ليتجرأ على تلبية هذه الدعوة والاستجابة لها من ضعفت عزيمته وساءت أخلاقه وطباعه فما استجاب لها إلا من كانوا خيرة السلالة البشرية وغرة الإنسانية وكانت الدعوة حينذاك جدَّ مفتقرة إلى أمثال أولئك الرجال النجباء ، والحق أنه لم يكن من سبيل لتمييز الصالح من غير الصالح وانتقاء الصالحين من بين الجم الغفير من الناس إلا بأن يضطر كل من يلبي الدعوة إلى أن يجتاز تلك العقبة الشديدة ، عقبة الاضطهاد والتضييق القاسي الجائر .

وزد على ذلك أن الذين آمنوا بالله وبرسوله لم يقاسوا تلك الشدائد وما صبروا على تلك المكاره لأغراضهم الذاتية أو لمنافعهم العائلية أو مطامحهم القومية . ففي سبيل الله ابتلوا بأنواع من الأذى من الضرب والجوع ، وفي سبيل الحق بذلوا مهجهم وأرواحهم ، وفي تلك السبيل المباركة أصبحوا كغرض تعاوره رماة السوء والجور من كل جانب . فكانت النتيجة أن ازدادوا إيماناً على إيمانهم وتكونت فيهم تلك العقلية الإسلامية الصحيحة التي كانت الحاجة إليها ماسة ، وكذلك تطبعوا بالأخلاق الإسلامية الزكية ، وما زالوا يزدادون حباً لله وصلابة في الدين وإخلاصاً في التفكير والعمل ، وتشبعت أرواحهم بالفكرة الإسلامية وامتزجت بلحومهم ودمائهم ، وكان تكُّون تلك العقلية الإسلامية الخالصة أمراً طبيعياً في « مدرسة الفتن والشدائد » هذه . فإن الرجل إذا بدأ

يعمل ، واضعاً نصب عينيه مطمحاً جليلاً يقاسي في سبيله أنواعاً من الشدائد من الضرب والحبس والجوع والتشريد والنفي ، ويجتاز في هذا الكفاح مراحله العديدة وعقباته الشديدة المتشعبة . . إذا قام بكل ذلك استشعرت نفسه ذلك المطمح الأسمى نتيجة لتلك التجارب الذاتية واصطبغت حياته كلها بصبغته ، وكأني به تتحول شخصيته كلها إلى ذلك المطمح وتُفرغ في قالبه . ولأجل تنشئتهم على هذه السجية فرضت عليهم الصلوات الخمس ، حتى تظل أنظارهم مرتكزة على مطمحها الأسمى ، وتبقى عزائمهم معقودة على الغاية المنشودة ، وتقوى عقيدتهم بتجديد عهد الولاء والطاعة لمن بيده ملكوت السموات والأرض ، ويزداد ذكرهم حاكمية الله العزيز الذي أسلموا له وجوههم . . فُرضت عليهم ليزدادوا ثقة وإيماناً بأن الله الذي عاهدوه على امتثال أوامره في هذه الحياة الدنيا إنما هو عالم الغيب والشهادة ، وأنه مالك يوم الدين ، وأنه هو القاهر فوق عباده ، فتطمئن قلوبهم بطاعته ولا تمر بها خاطرة من طاعة غير الله أبداً .

فالذين سبقوا غيرهم إلى الإسلام وآمنوا بكلمة الله كانوا يُرَبُّون على هذا الطراز .

ومن جانب آخر كانت هذه التربية الفذة المبتكرة أكبر مساعد في انتشار الدعوة وظهور كلمتها ، فإن الناس كانوا يشاهدون بأم أعينهم أن نفراً من أنفسهم يُفْتَنون ويُؤْذَوْن بالضرب والحبس ويُخرجون من ديارهم فلا يتضعضعون ولا

تتزلزل أقدامهم ، فيرجع أولئك إلى أنفسهم يتساءلون : لم هذا التعذيب ؟ وعلام هذا التضييق والاضطهاد ؟ وإذا استيقنت أنفسهم أن مثل هذا البلاء لم يأت هؤلاء في سبيل الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، وأنهم ما يُفتنون مثل هذه الفتنة قضاءً لمآربهم الذاتية ، وإنما يذوقون ما يذوقون من العذاب لكلمة حق تجلى لهم صدقها ، وانكشفت لهم آياتها . . . إذا استيقنت أنفس كل ذلك تطلعت إلى استطلاع ذلك الشيء الذي يُؤْذى القوم في سبيله ويتحملون لأجله هذه الشدائد الهائلة ، وإذا قيل لهم إن ذلك الشيء ليس إلا لكلمة واحدة هي « لا إله إلا الله » ، كلمة أحدثت فيهم مثل هذا الانقلاب الصالح ، فهي التي لأجلها فارقوا نعيم الحياة ، وهي التي يُضحُون في سبيلها بالأنفس والأموال والأولاد وبكل ما في هذه الحياة الدنيا من مُتع وملذات ، إذا قيل لهم ذلك وعرفوه انجلت العمايات عن قلوبهم ، وانقشع كل ما يغشي أفئدتهم من سحب الجهل ، فيقع ذلك الحق من قلوبهم موقع الغيث من التربة الصالحة ، ومن ثَمَّ ترى أنه لم يستكبر منهم عن دعوة الحق إلا من أعمته نَعرة السيادة الجاهلية وتَعَظُّمها بالآباءِ ، أو التهافت على مطامع الدنيا وشهواتها ، وأخذ الناس يتهافتون على الدين الحق وينجذبون إلى الدعوة ، فمنهم من انجذب إليها بمجرد سماعها ، ومنهم من سعى سعيه يقاومها ويدفعها عن نفسه حيناً من الزمن ثم خضع لجلال الحق ، حتى أنه لم

يبق في الجاهلية إلا من حُرم الأمانة ونزاهة الرأي . وفي خلال تلك المدة مُثِّلت الدعوة ومبادؤها وما تدعو إليه من إصلاح شامل ونظام للحياة جامع . . مَثَّلها صاحبها والقائم بأمرها صلوات الله عليه وسلامه بحياته الشخصية أجمل تمثيل ، حتى كان يتراءى للناظر روح الإسلام الحقيقي في كل ما يصدر عنه ﷺ من قول أو فعل ، وأمكنهم أن يروا الإسلام متمثلاً في مرآة أخلاقه الزكية وحياته الطيبة الطاهرة ، وهذا موضوع جليل يحتاج إلى شيء من الشرح والتفصيل ، ولكن ضيق نطاق المقام لا يسمح بذلك ، إلا أنني مفض إليكم بأمور عديدة مهمة منه ، متوخياً الإيجاز حسب ما أستطيع :

كانت زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها من أغنى الناس في الحجاز وأكثرهم ثراءً ، وكان النبي ﷺ يتَّجِرُ بمالها ، وذلك قبل انبثاق فجر النبّوة . ولكنه لما اصطفاه الله للرسالة وبدأ يدعو الناس إلى كلمة الحق ، أخذت تجارته في الكساد ، ولم يكن بد من ذلك ، لأنه ﷺ قد تفرَّغ لأداءِ مهمة الرسالة وانقطع للدَّعوة ، وانقلبت العرب كلها عدواً له ولدعوته . وأما ما ادّخره هو وصاحبته البارَّة الكريمة من أموال التجارة ، فقد جادا به في سبيل الدَّعوة وأنفَقَاه كله في سنين عديدة عن سخاءٍ وطيب نفس ، حتى إنه آل الأمر إلى أن النبي ﷺ لما ذهب إلى الطائف ليدعو أهلها إلى كلمة الله ودينه الحق ما تسنى له أن يجد راحلة ـ حتى ولا حماراً ـ

يركبها في طريقه إليها ، وهو هو الذي كان بالأمس من أغنى تجار الحجاز وأكثرهم مالاً وجاهاً .

جاءه ناس من قريش فقالوا : « إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا ، وإن كنت تريد امرأة نُزَوّجْك أجمل نسائنا » . عرضوا عليه ذلك ، ولكن الذي اصطفاه الله لإنقاذ البشر من براثن الكفر والجهل والبؤس والشقاء ، وليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، لم يرض عن دعوته بديلاً ، ورضي بنصيبه من قومه أن يقابَل بالسّب والشتم ويؤذى بأنواع الشدائد والشتم ويؤذى بأنواع الشدائد والآلام ، فأجابهم قائلاً : « مالي وما تقولون ؟ ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عَليَّ كتاباً وأرادني ان أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلَّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عَليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

مرَّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ ، وعنده صهيب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يا محمد : « أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ أطردهم ، فلعلك

إن طردتهم أن نتبعك». ولكن الذي خصه الله من بين رسله برسالة الإنسانية الكاملة والقيام بالعدل والقسط بين الناس ، أبى أن يطرد الضعفاء والمساكين من مجلسه لأجل هؤلاء الأشراف المتبجّحين بسيادتهم ، الشامخين بأنوفهم .

لم يحفل النبي ﷺ في سبيل الدعوة ونشر كلمتها بشيء من مصالح بلاده أو قومه أو عشيرته أو أسرته . لم يهتم منها في قليل ولا كثير ، وهذا هو الذي جعل الناس يستيقنون أنه ﷺ إنما قام لسعادة المجتمع البشري قاطبة ، وهذا الذي جذب إلى دعوته أناساً من كل جنس ومن كل أمة . فإنه لو عناه وشغله أمر أسرته وارتفاع شأن بني هاشم من أهله لما كان من الميسور أن يقبل على دعوته غير بني هاشم من العرب ، ولو كان من همه أن يحمي قريشاً من غيرهم ويذود عن سيادتهم السياسية لما أمكن أن يُلبِّيَ دعوته قبائل العرب من غير قريش ، ولو كان من مهمته إعلاء كلمة العرب ورفع منار القومية العربية لكان من المستحيل أن يأوي إلى كنفه وينضوي تحت لوائه بلال من الحبشة وصهيب من الروم ، وسلمان من الفرس . فمما لا مرية فيه أن الذي جذب الناس جميعاً إلى هذه الدعوة ، أعلاهم وأدناهم ، أسودهم وأحمرهم ، إنما كان حبه الخالص لها ، ونجرده التام من كل نوع من أنواع الأغراض الذاتية والعائلية أو القومية والوطنية .

ولما أذن الله لنبيه ﷺ ، بالهجرة من مكة المكرمة فوّض جميع الودائع التي أودعه إياها أعداؤه من بني قومه إلى

علي ابن عمه أبي طالب موصياً إياه بردها إلى كل واحد منهم . فالذي لا يهمه إلا حطام هذه الدنيا الدنيئة يستبد في مثل هذه الظروف بكل ما تصل إليه يده ويعده مغانم حلوة ، ولكن العبد القانت لله جعل همه أن يؤدي الأمانات إلى أهلها من خصومه الذين كانوا يتربصون به الدوائر ويتحينون منه الفرص ، وذلك حينما كانوا أجمعوا أمرهم على قتله والكيد به . وهذا هو الخلق العظيم الذي كان له أثره في نفوس العرب ، وربما كان أدهشهم لجلال منظره وعظم شأنه . ومن أجل ذلك يظهر لي أنهم حينما برزوا لقتاله ، ﷺ ، بعد عامين من ذلك وناهضوا صفوف المسلمين وجهاً لوجه في وقعة بدر ، لم يكونوا مطمئنين إلى ما خرجوا له من القتال ، بل الذي أراه وأجزم به أن ضمائرهم ربما كانت تؤنِّبهم على ما جاءوا له وتقول لهم : « ما بالكم ؟ من تقاتلون ؟ أتقاتلون رجلاً لا ينسى حقوق البشر حتى ولا في الساعة التي يريد فيها الخروج من بين قوم واقفين له بالمرصاد منتهزين الفرصة للفتك به » ولعمري إنهم ، وإن قاوموه بأيديهم وحاربوه بأسلحتهم تعنتاً وعناداً لا بد أن يكونوا قد أحسوا وخزاً في ضمائرهم وحِزَّةً في نفوسهم على ما اجترؤوا عليه من قتال الأمين المأمون المشهود له بالصدق والعفاف وطهارة الأخلاق . وأي عجب ، إذا كان ذلك عاملاً من العوامل الخلقية التي سبّبت هزيمة الكفار يوم بدر .

وبعد كفاح عنيف وجهاد متواصل استمر ثلاثة عشر عاماً

قد آن للإسلام أن يؤسس دولة صغيرة في المدينة ، على منوّرها ألف تحية وسلام ، وذلك حينما تهيأ له زهاء ثلاثمائة رجل من الأصحاب ، الذين قد رُبيَّ كل واحد منهم تربية إسلامية كاملة بحيث يستطيع أن يقوم بما يفَّوض إليه من الأعمال ، قيامَ المسلم الصادق بواجباته ، وكان هؤلاء الرجال من أصحاب النبي ﷺ مستعدين إذ ذاك للاضطلاع بأعباء دولة إسلامية وإدارة شئونها . فأقيمت الدولة وأسس بنيانها . وعاش بعد ذلك النبي ﷺ عشر سنين يقوم بشئون الدولة ويشرف على إدارتها بنفسه. ففي هذه المدة الوجيزة درّب أصحابه على تنظيم دوائر الحكومة وإدارة كل فرع من فروعها على المنهاج الإسلامي المستقيم. وفي خلال هذه المدة نضج التفكير الإسلامي وانتقل من دور الفكرة المحضة إلى نظام للمدينة شامل تبين فيه للناس كل ناحية من نظم الإسلام الإدارية والثقافية والقضائية والاقتصادية والمالية والاجتماعية ، وتجلى للملأ كل جانب من سياستها الدولية وخطتها في السِّلم والحرب ، ووُضعت المباديء والقوانين لكل فرع من فروع الحياة ، وأجريت تلك المباديء على الحياة العملية ونُفِّذت فيها ، وأُعِدَّ العاملون للجري على هذا المنهاج والعمل بهذا الطراز الخاص بالتعليم والتربية والتجارب العملية . فمثل هؤلاء « الحكم الإسلامي » تمثيلاً تحولت بفضله تلك الدولة المدنية الصغيرة في ثماني سنين إلى دولة عظيمة بسطت جناح رحمتها على بلاد العرب كلها . فكلما رأى الناس الإسلام متمثلاً في حياتهم ، متجلياً في مرآة أعمالهم اليومية وشاهدوا

نتائجه في صورة بارزة ملموسة ، استيقنت أنفسهم أن لا رجاء للسعادة البشرية إلا في كنفه ولا موئل للإنسانية المعذبة إلا في ظله . وهناك ترى أنه قد صدّق بالدعوة ودان بها ، حتى الذين وقفوا في وجهها وحاربوها أعواماً طوالاً وعارضوها بكل وسائلهم فآمن بالله خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل ، ودخل في دين الله أبو سفيان ابن حرب ، وخضع لعظمة الدعوة وجلالها وحشي ، قاتل عم النبي ﷺ وأخيه في الرضاعة حمزة بن عبد المطلب ، وكذلك استسلمت لأمر الله زوج أبي سفيان ، آكلة الأكباد ، هند بنت عتبة[١] واضطرت إلى الانقياد والإذعان لمن لم يكن أحد أبغض إلى قلبها منه .

ومما يؤسف له أن المؤرخين قد أعادوا وأبدوا في ذكر الغزوات حيث جعل الناس يزعمون أن هذا الانقلاب العظيم في بلاد العرب إنما حدث بالحروب والمعارك الدامية ، ولكن الحق الذي لا مراء فيه أن الحروب التي حمي وطيسها في بلاد العرب بين دعاة الحق وخصومه لم يمتد لهيبها إلا بضع سنين ، وأن المعارك التي سخرت لأمر الإسلام أمة باسلة من أحلاس الحروب كالعرب ، لم يقتل فيها إلا ألف وبضع مائة رجل من كلا الجانبين . وإن كان لك علم بتاريخ الثورات في العالم ، لما وسعك إلا الاعتراف بأن هذا الانقلاب الذي ما

---

(١) في كتب السيرة أن هنداً بقرت بطن سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع ان تستسيغها .

أريق فيه الدم إلا تحلة للقيم جدير بأن يُسَمّى انقلاباً سلمياً ، ثم لم يتغير بهذا الانقلاب طراز إدارة البلاد فحسب ، بل الحقيقة أنه قد تبدلت به أيضاً العقليات ، ووجهات الأنظار ، ومناهج التفكير ، وطرق المعيشة والأخلاق والعادات وقد تغيرت تغيراً تاماً ، وبالجملة قد انقلبت الأرض ، أرض العرب ، ظهراً لبطن وتحولت الأمة بأسرها تحولاً تاماً . فالذين كانوا يأتون الفاحشة من رجالهم أصبحوا حماة لأعراض النساء ، والذين كانوا يعاقرون الخمر عادوا دعاة لإلغاء المسكرات واستئصال شأفتها والذين كان دينهم التلصص وقطع الطريق بلغوا من الورع والعفاف مبلغاً جعلهم يتحرجون من الأكل عند أصدقائهم حذراً أن يكون من قِبَل أكل المال بالباطل ، إلى أن أنزل الله في كتابه ما جعلهم يطمئنون إلى أنه لا جناح عليهم فيما طعموا في مثل تلك الظروف ، والذين كان من شيمتهم شَنُّ الغارات والاعتداء على حقوق الناس صعدوا أعلى معارج الزهد والتُّقى ، حتى أنه لما فتحوا عاصمة بلاد الفرس وجَد جندي من عامة جنودهم التاج الكسرويّ الذي يناهز ثمنه ملايين الدنانير فأسر به إلى أمير الجيش في الليل المظلم مخفياً إياه تحت كسائه المرقع ، عسى أن لا يراه أحد فيكون له حسن الأحدوثة بهذا الحدث الجليل ويشوب صدقه وإخلاصه شيء من شوائب الرياء ، والذين ما كانوا يقيمون وزناً للنفس البشرية ويسفكون الدماء في غير طائل ويئدون بناتهم وفلذات أكبادهم بأيديهم

بلغوا من شعورهم بحرمة النفس أن أصبحوا لا يقدرون أن ينظروا إلى طائر صغير يراق دمه من غير شفقة ولا رحمة ، والذين ما كانوا من قبلُ من الأمانة والعدل في شيء ، أصبحوا بررة يضرب المثل بأمانتهم وتعففهم ، حتى أنه لما ذهب لجباية الخراج عاملهم إلى يهود خيبر بعد ما انقادت لأمر الإسلام وخضعت له وقدّموا له مبلغاً كبيراً من المال ليخفف عنهم بعض ما عليهم من خراج الحكومة ، أبى أن يقبل الرشوة ورفضها رفضاً باتاً بل شطر جميع ما أغلّته أرضهم في ذلك العام شطرين وخيَّرهم أن يأخذوا أيّهما شاءوا . ولما رأت اليهود من العامل هذه المعاملة الغريبة أخذ العجب منهم مأخذاً عظيماً واستولت عليهم الدهشة حتى صاحوا قائلين (ما قامت السموات والأرض إلا بمثل هذا العدل والقسط) ، ونبغ فيهم ولاةٌ وأمراء ما كانوا يسكنون في قصور الحكومة ، بل يعيشون بين الرعية في مثل بيوتهم ، وكانوا يمشون في الأسواق على أرجلهم ، ولم يكن لهم حرس على أبوابهم ، حتى أنه كان ميسوراً لكل فرد من أفراد الشعب أن يزورهم في أية ساعة من ساعات الليل والنهار ، ونبغ فيهم من القُضاة من قضى لرجل من اليهود على الخليفة نفسه حينما رفع الخليفة القضية إلى المحكة ، قضى لليهودي ولم يقبل دعوى أمير المؤمنين ، لأنه لم يتمكن من تقديم الشهود على دعواه غير ابنه ومولاه ، ونبغ فيهم من قواد العسكر من ردَّ الجزية برمتها إلى أهل مدينة ـ وهي حمص من مدن الشام ـ حينما اضطر

إلى إخلائها لمصلحة حربية ، مصرّحاً لهم بأنهم ـ المسلمين ـ كانوا أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة ، قائلاً : (قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم) . فما كان جوابهم إلا أن تأثروا بصنعه هذا وصاحوا قائلين « لولايتُكم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعنَّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » ، ونبغ فيهم من السفراء من دخل بلاط رئيس قواد العساكر الإيرانية ، والجمع حافل غاصٌّ بأعيان القوم وأمرائهم ، فمثّل مباديء الانسانية الخالدة والإسلامية الكاملة تمثيلاً رائعاً ، آخذاً بمجامع القلوب وانتقد ما شاهد هنالك من الفوارق بين الطبقات وعلّو بعضها على بعض انتقاداً صريحاً جديراً بالموقف ، ويعلم الله كم من جنود الفرس ورجال عسكرهم ممن حضروا ذلك الحفل واستمعوا إلى كلام السفير المسلم ، وشاهدوا موقفه الرائع ، أحسوا بجلال دين الإنسانية وتأثروا بعظم شأنه في ذلك الموقف الرهيب ذاته ، ونشأ فيهم من الرعية من بلغ من شعوره بالمسئولية الخلقية أن كان أحدهم يقترف جناية فيأتي الأمير ويعترف له بجنايته ويُلحّ عليه أن يُجري عليه حدود الله ولا يتهاون في أمره ، وهو يعلم علم اليقين أنه تعدّى حداً من حدود الله ، يعاقب صاحبه بقطع اليد أو يُرجم بالحجارة حتى يهلك ، وذلك ليتطهر من أرجاس الإثم الذي اجترحه ولا يأتي ربه سارقاً أو زانياً . ونشأ فيهم من الجنود من كانوا لا يقاتلون ابتغاءً للرزق ، بل كانوا

يحاربون على نفقتهم إعلاءً للكلمة التي آمنوا بها لا يريدون جزاءً ولا بديلاً ، ولا يستأثرون بما تناله أيديهم من الغنائم بل يأتون بها كلها إلى أمير الجيش ليقضي فيها حسب ما نزل به التشريع .

أرأيتك تحسب أنه كان من الممكن حدوث مثل هذا الانقلاب العظيم في الخلق الاجتماعي والعقلية الجماعية بالحرب وحدها ؟ وها هي ذي صفحات التاريخ ماثلة بين عينيك ، فهل تجد فيها من نظير لمثل هذا التحول المدهش المعجز في المجتمع الإنساني بفضل السيوف ؟

ومن الغريب المدهش الذي يُقضى منه العجب أنه ما أسلم في ثلاثة عشر عاماً الا زهاء ثلاثمائة رجل ولكنه في العشر السنين الأخيرة قد أسلمت بلاد العرب كلها ودخلت في طاعة الله . وهذه معضلة يستعصي على الناس حلها فيلجئون إلى تأويلات بعيدة يأباها العقل السليم ، والحال أن الأمر بيِّن جليّ لا غموض فيه ولا إبهام ، وذلك أنه ما دامت لم تتكون أوضاع الحياة ونظمها وفق التفكير الجديد فما كاد الناس يفطنون لما يدعو إليه هذا القائد الفذ وما يريد بناءه . ومن ثمَّ زالت تلك الأوهام والظنون التي كانت تقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال .

فمن قائل في دعوته : إن هو إلا شاعر أو ساحر أو كاهن ومن قائل : إن بالرجل جِنَّة ، ومنهم من يزعم أن صاحب الرسالة له أوهام وأحلام خدعته عن نفسه وزيّنت له الأقوال

وأفانين الأخيلة . وهكذا ذهبوا في شأن الدعوة وصاحبها مذاهب بعيدة عن الحقيقة ، غارقة في لجج الأوهام . فما آمن باديء ذي بدء إلا من وهبهم الله من الذكاء وتوقد الفهم والبصيرة ما جعلهم قادرين على استجلاء وجه السعادة البشرية من وراء هذه الدعوة ، ولكنه لما تشكل نظام للحياة شامل وكمل بناؤه على أساس هذا التفكير وشاهدوا بأمّ أعينهم ثمراته العملية ولمسوها بأيديهم . علموا أن هذا هو الشيء الذي كان يقاسي في سبيله ذلك العبد القانت لله أنواعاً من الأهوال والشدائد ، فتزلزل بنيان المكابرة واللجاجة ولم يعد ممكناً أن تثبت لها قدم بعد ذلك فقد حصحص الحق وانكشف الغطاء عن وجه الحقيقة وأصبح من المستحيل لمن له عينان ، وجعله الله فيهما من نور ، أن ينكر هذا الحق الصريح والحقيقة الملموسة .

هذه هي سبيل الانقلاب الاجتماعي الذي يريده الإسلام وهذا هو طريقه ، وعلى هذا الطراز يبتديء ، وبمثل هذا التدريج يترقى . ومن الناس من يحسب حدوث هذا الانقلاب معجزة خارقة للعادة ، ويقول أنى لنا بمثل هذا الآن ؟ فإنه لن يتّم إلا على يد نبي من الأنبياء ، ولكن دراسة التاريخ تدلنا من غير شك على أن حدوث ذلك الانقلاب كان أمراً طبيعياً ، فإنا نشاهد فيه ربط الأسباب بمسبّباتها وصلة المقدمات بنتائجها .

فإن جرينا اليوم في عملنا على ذلك المنهاج ، فلا بد أن

تظهر تلك النتائج بعينها التي ظهرت من ذي قبل . اللهم إلا أنه يحتاج إلى إيمان صادق وشعور إسلامي وحنيفية كاملة وانقطاع إلى المطمح وعزم راسخ ونضحية بالعواطف الشخصية وتجرد عن الأماني والآمال الذاتية . يحتاج هذا العمل إلى كل ذلك ، وإلى رجال أولي عزم وجَلد من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ولم يلتفتوا بعد ذلك إلى شيء في قليل ولا كثير ، والذين لا يتزحزحون قيد شعرة عما وضعوه نصب أعينهم من الغاية العليا ، مهما يكن من تقلبات الحوادث في الدنيا ، والذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ويُضَحّون في سبيلها بكل ما يتراءى لهم من آمال رقيهم ومستقبل معايشهم ولا يتحرجون من القضاء على آمالهم وآمال آبائهم وأقربائهم الذين يتمنّون لهم المستقبل الزاهر في هذه الحياة الدنيا ويرجون منهم المعونة في تقديم أود حياتهم المادية والذين لا يحزنهم مفارقة ذوي القربى والاصدقاء ، والذين يقابلون بصبر وَجَلد كل ما يعترض دون غايتهم من العقبات من البيئة والحكومة والقانون والأمة والوطن ويقاومونها جميعاً فمثل هؤلاء الرجال هم الذين حملوا لواء الدعوة وأعلـوا كلمة الله فيما مضى من الزمان ، وكذلك اليوم لا يقوم بها إلا أمثال هؤلاء ولا يقدر على إنجازها والاضطلاع بأعبائها إلا من كان على غرارهم وسجيّتهم . . .

المحتويات

هذا الكتاب

إن الأستاذ أبا الأعلى المودودي، من علماء الهند المسلمين، في العصر الحديث، الذين آلمهم ما وصل إليه المسلمون إلى حال من التشتت مؤلمة، وإلى درجة من الفرقة ممزقة دفعت بهم إلى الغربة، وإلى الإتجار باسم الدين والتوسل به للوصول إلى مآرب لا تمت إلى الإسلام إلا بالظاهر.

وهذه الرسالة ترمي إلى تهذيب نفوس المسلمين في الهند وغيرها، وتبين لهم سبل العودة إلى الأصالة الدينية الحنيفة بالسمو على النفس، وإعداد النشء إعداداً سليماً يؤهلهم إلى العودة إلى ما كان عليه المسلمون من عز، ويرشدهم إلى الطرق الحميدة التي تصلهم بماضيهم المجيد، وتنتشلهم من الحيرة التي يتخبطون بها.

وإنه رأى بثاقب نظره أن الأخذ بثقافة الغرب وحدها تبعدهم عن تعاليم الإسلام وتحيد بهم عن التمسك بالدين الحنيف، وتغربهم عن وسائل الحكم الإسلامي الصحيح.

وترجمة هذا الكتاب إلى العربية بلغة سلسلة يتيح للقارىء الفرصة للتعرف على أفضل ما جادت به أفكار علماء المسلمين في العصر الحاضر.

الدار السعودية
للنشر والتوزيع